المستشرقون الفرنسيون

في خدمة الإدارة الاستعمارية بالجزائر 1830 - 1962

د- حنيفي هلايلي - جامعة سيدي بلعباس

تعود أصول الاستشراق الفرنسي ببعديه السياسي و الاستعماري إلى عهد الملك **فرانسوا الأول** الذي يعد أول سياسي فرنسي يفكر في أهمية تعليم اللغات الشرقية وخاصة العربية منها، إذ تمكنت دولته من الحصول على امتيازات سياسية و دينية في بعض مناطق الإمبراطورية العثمانية في سنة 1536[1]. و في سنة 1669 تدعم ما فكر فيه الملك **فرانسوا الأول** بصدور قرار ملكي يقضي بأن يدرس ستة طلاب فرنسيين اللغات الشرقية في أديرة الكبوشين في القسنطنطينية و أزمير قبل الذهاب للخدمة في الشرق و في بلدان شمال إفريقيا، و أطلق على هؤلاء الطلاب اسم شبيبة اللغة[2].

لقد أصبحت الجزائر منذ الاحتلال الفرنسي لها في سنة 1830، منطلقا حقيقيا لحركة الاستشراق بمحتواه الاستعماري، إذ وقعت جل المخطوطات و الوثائق العثمانية بين أيدي مستشرقيها الذين شرعوا في دراستها و تحليلها و ترجمتها إلى اللغة الفرنسية بهدف توظيف كم هائل من المعلومات و النتائج من أجل تثبيت الوجود الاستعماري في الجزائر.

و يرى بعض الباحثين أن السلطات الفرنسية أولت اهتماما كبيرا بمشروع اكتشاف الجزائري العلمي، و هذا من خلال ترجمة **البارون دوسلان** لتاريخ ابن خلدون. وكان الهدف من هذا هو الاهتمام باللغة العربية، و محاولة فهم الدين الإسلامي، و علاقة الفرد الجزائري بهذا الدين، مما جعل فرنسا توظف المستشرقين في مناصب إدارية لاستغلال خبرتهم في توطيد نفوذها الاستعماري بالجزائر[3].

أولا: جمعيات علمية لاكتشاف الجزائر.

يرى المستشرق الفرنسي **هنري ماسيه** (H. Masset) بأن البيان الذي و جهته قيادة الحملة الفرنسية إلى الجزائريين عشية انطلاقتها من ميناء طولون في فرنسا سنة 1830، هو المعلم الأول للدراسات الاستشراقية الفرنسية في الجزائر. لكن جوهر الحقيقة هو عكس ذلك. إن البيان في حقيقة الأمر لم يكن سوى إحدى الوسائل الأساسية التي فكرت قيادة الحملة في إيجادها لربط أول اتصال مع سكان مدينة الجزائر. ففي سياق هذا البيان أكد قائد الحملة بأن الهدف ليس احتلال الجزائر، بل إنقاذ السكان من الظلم و التعسف التركي الذي كان جاثما على السكان زهاء ثلاثة قرون[4].

و المعروف أن المعلم الأول للدراسات الاستشراقية الفرنسية في الجزائر تمثل في أعمال اللجنة الإفريقية التي وصلت إلى الجزائر بتاريخ 2 سبتمبر 1833[5]. و كان هدفها الأساسي جمع المعلومات المختلفة عن حالة الجزائر و بناء تصور حول مستقبلها، مما أتاح للجنة دراسة المجتمع الجزائري منذ بداية التواجد الاستعماري مما أوحى للإدارة الاستعمارية إنشاء الجمعيات و اللجان العلمية بمساعدة المستشرقين و التي بلغ عددها عشية اندلاع الثورة التحريرية سنة 1954 بـــ 19 جمعية[6].

و في سنة 1837، أنشأت وزارة الحربية لجنة باسم اكتشاف الجزائر العلمي. و قد قامت هذه اللجنة بنشر دراسات هامة في عدة أجزاء من الآثار و العلوم الطبيعية والفنون الجميلة و التاريخ و علم الأنساب. كما قام باحثوها بنشر أعمالهم في التاريخ المحلي تتضمن، اللهجات، و الطرق، و النظم، و طبائع السكان، و الزوايا، و الحياة القبلية[7].

و كانت الجمعيات الفرنسية تنقسم إلى قسمين:

1. جمعيات محلية هدفها دراسة مناطق معينة من الجزائر مثل الجمعية الأثرية لمدينة قسنطينة التي تأسست في ديسمبر 1852 بمبادرة **شيربونو** (Cherboneau) ومساعدة كل من **فيرو** (Charles Feraud) (1829-1888)، و **ألكسي بيلامان** (Alexi Bilamane). و قد قامت هذه الجمعية بإصدار تقويم عام لنشاطاتها (Annaire) عام 1853، ليتحول فيها بعد إلى حوليات تاريخية، والملاحظ أن أعمال الجمعية تتمحور أساسا في دراسة و اكتشاف الآثار الرومانية بالمنطقة و مناطق الشرق الجزائري[8].

و في سنة 1978، ظهرت في مدينة وهران جمعية وهران الأثرية، و أصدرت بدورها نشرة (Bulletin) تهتم بالدراسات التاريخية و الأثرية لمنطقة الغرب الجزائري.

2. الجمعيات الوطنية و التي تهتم بدراسة البلاد الجزائرية، و من أبرز هذه الجمعيات، لجنة اكتشاف الجزائري العلمي. و قد ضمنت هذه اللجنة مختصين في شؤون المستعمرات و مستشرقين و علماء قدموا كلهم إلى الجزائر لمساعدة الإدارة الفرنسية بخبرتهم بغية تأكيد الهيمنة الاستعمارية على الشعب الجزائري.

و من منشورات اللجنة ترجمة المستشرق **البارون دوسلان** لكتاب ابن خلدون بطلب من وزير الحربية[9].

و من الواضح أن هناك جمعيات علمية استكشافية أخرى ساهمت في ميدان الدراسات الاستشراقية. فبوحي من الحاكم العام **راندون** (1852-1858) ظهرت في مدينة الجزائر سنة 1856 الجمعية التاريخية الجزائرية (La socit Historique Algrienne)[10].

و قد أصدرت هذه الجمعية المحلية الإفريقية (R.A)، و صدر أول عدد لها في شهر أكتوبر 1856 و استمرت في الصدور إلى غاية 1961. و الدارس لمختلف أعدادها يجدها غنية بالدراسات التاريخية و الأثرية و الأنتروبولوجية، و تراجم للشخصيات الجزائرية عبر مختلف الحقب التاريخية.

و الظاهر أن الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر و من ورائها جمع الباحثين والمؤرخين و المستشرقين، عرفت كيف توظف التاريخ المحلي في خدمة المستعمر. وهذه المخططات كانت تهدف إلى إفراغ التاريخ الجزائري من محتواه الحضاري، وتحويله إلى منطقة فراغ، فالجزائر في نظر كتابات هؤلاء ما هي إلا حيز جغرافي يتعاقب عليه الحكام و تنتقل عبره القبائل المتناحرة التي لا تخضع إلا للإرهاب والغطرسة. فالجزائر في منظور الاستشراق الفرنسي جزء من حضارة الغرب افتكت من طرف الشرق في مناسبتين الأولى عند الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي، والثانية مع ظهور العثمانيين، و تأسيس إيالة الجزائر مع مطلع القرن السادس عشر[11].

و لا غضاضة أن مجالات البحث عند الفرنسيين اتجهت إلى ثلاثة عناصر أساسية:

1. نشر الآثار القديمة عن الجزائر.
2. إنشاء اللجان العلمية، و منح الرخص للأفراد للقيام بعمليات البحث والجمع و التعريف بالآثار التاريخية في الجزائر.
3. تكوين الجمعيات المختصة، و الصحف و الدوريات التي تحفظ المكتشفات التاريخية.

ثانيا: المستشرقون في خدمة الإدارة الفرنسية بالجزائر:

إن الحديث عن حركة الاستشراق الفرنسي في الجزائر يقودنا إلى أن العديد منهم كانوا موظفين سامون في خدمة الإدارة الاستعمارية، و مما يدل على ذلك، كتاباتهم التي تنصب جميعها في إطار خدمة الوجود الفرنسي بالجزائر. و لإبراز دور هؤلاء سوف

نتناول ثلاثة نماذج من المستشرقين الفرنسيين، الذين دعموا الحركة الاستعمارية بإنجازاتهم.

1. أدريان بر بروجر (Adrien Berbrugger) (1801-1869):

يعد من أبرز المؤرخين الفرنسيين في علم التاريخ والآثار والحفريات، اهتم بجمع المخطوطات الجزائرية منذ دخوله الجزائر سنة 1834. وقد ساعدته تنقلاته مع الجيش الفرنسي أثناء الحملات العسكرية من جمع المخطوطات. فقد تمكن من جمع 800 مخطوطة أثناء الحملة الفرنسية على مدينة قسنطينة سنة 1837[12].

و في سنة 1835 كلفه الحاكم العام الجنرال **كلوزيل** بإنشاء المكتبة العامة الجزائرية وعين محافظا لها، حيث بدء في جمع الكتب والمخطوطات والوثائق لوضعها في رفوف المكتبة الجديدة. وفي نفس السنة عين مديرا عاما لجريدة الممرن الجزائري

(le moniteur Algrien)

وقام بتسطير أهداف الرسالة الثقافية الفرنسية حيث كتب يقول : "إننا نريد أن نعمل في نطاق المستعمرة وفي نطاق الوطن الأم، وهنا نريد أن نطور عواطف الجنسية والتي تجعلنا ننظر إلى إفريقيا كوطننا الثاني، والتي توحي إلينا بالمحبة لهذه البلاد التي لنا فيها مهمة جميلة هي خلق شعب جديد وتسوية مشاكل اجتماعية خطيرة..." ويقول في موضع آخر: "نريد أن لا نبقى ننظر إليها (الجزائر) وكأننا مركز للعبور... لقد حان الوقت لكي نعمل كل ما في وسعنا من أجل أن نؤكد للوطن الأم بأن إفريقيا (الجزائر) في إمكانها أن تصبح مركز قوة لفرنسا، وتصبح غنية بها كذلك ".[13]

وقد سجل زميله المستشرق **شيربونو** الذي خلفه في رئاسة الجمعية التاريخية الجزائرية سنة 1869، انطباعا حسنا حول الأعمال الكبيرة التي قدمها المستشرق للإدارة الاستعمارية في الجزائر حيث تعج المجلة الإفريقية بأبحاثه ودراساته : "لقد سخر أجمل سنوات عمره وذكائه من أجل انتصار مستعمرتنا ".[14]

ويقول عنه الرحالة الألماني **هاينريش فون مالتسان**، الذي زار الجزائر في منتصف القرن التاسع عشر بأنه يعد أحد معالم الجزائر الرئيسية، فهو يقيم فيها منذ ثلاثين سنة ويعرف آثارها أكثر من أي شخص آخر، بالإضافة إلى أنه أستاذ ممتاز في اللغة العربية.[15]

2.البارون دوسلان (Le baron de slane) (1801-1878):

ولد هذا المستشرق بمدينة بلفاست الإيرلندية بتاريخ 12 أبريل 1801م. وانتقل إلى العاصمة الفرنسية باريس سنة 1830، لينضم بعدها إلى طلبة المشرق **دي ساسي**، وبعدما تعلم اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية،[16] تجنس بالجنسية الفرنسية في بداية الأربعينيات من القرن التاسع عشر.[17]

وخلال الفترة ما بين 1843,1845، كلفت الحكومة الفرنسية **دوسلان** بمهمة خاصة في الجزائر وقسنطينة. تضم كتابة تقارير هامة عن أهم المكتبات الموجودة بقسنطينة. وحصر مخطوطاتها، وقد قام بعملية تقص الكتب في أربع مكتبات رئيسية في مدينة قسنطينة. الأولى تتمثل في مكتبة سيدي حمودة من عائلة بن الفكون، وهي شخصية بارزة من أعيان قسنطينة، وتضم هذه المكتبة ما يناهز عن 2500 مخطوط. أما المكتبة الثانية فهي مكتبة **باش تارزي** التي بدورها تحتوي على 500 مخطوط. وبخصوص محتويات هذه المخطوطات، فكلها تشمل على أصول الدين والفقه والأحاديث النبوية وتفسير القرآن الكريم بالإضافة إلى التاريخ والجغرافيا والرياضيات والنحو والصرف والبلاغة[18].

ونظرا للجهود العلمية التي قام بها **دوسلان**، عينته الحكومة الفرنسية مترجما عاما للجيش الفرنسي بتاريخ 1 سبتمبر 1846، كما عين عضوا في أكاديمية الفنون والآداب الجميلة الفرنسية. وفي عام 1863 تولى كرسي اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس[19].

3.لويس ماسينيون (Louis Massignon) (1883-1962):

يعتبر **لويس ماسينيون** من أبرز المستشرقين الفرنسيين في الفترة المعاصرة، فهو مختص في الدراسات الشرقية في مجال الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع والآثار. وهو عضو في المجمعين العربيين في القاهرة ودمشق، ساهم في العديد من المؤتمرات الدولية للمستشرقين. والظاهر أن لقاء **لويس ماسينيون** بالضابط والمبشر الفرنسي **شارل دي فوكو** (ch. de Foucauld) (1857-1916) في سنة 1906، كان له وقع كبير في نفسيته، حيث جعلته ينجذب نحو الشرق، باعتبار أن **فوكو** قد عاش حياة طويلة بالعالم العربي[20]. ومن البديهي أن يكون دي فوكو قد حدث **ماسينيون** عن معارضة ومشاهداته في المنطقة.

بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى جند **ماسينيون** كضابط في فرقة الزواف العسكرية. وكانت هذه الفرقة تتكون أساسا من المجندين الجزائريين في الجيش الفرنسي[21]. وقد شاركت هذه الفرقة في العديد من الحروب التي خاضها الجيش الفرنسي وأبرزها حرب القرم 1854-1856م ثم إرسال فرقة تتكون من 2000 جندي، بالإضافة إلى تعيين مجموعة من فرقة الزواف في الحرس الإمبراطوري سنة 1863[22].

يعتبر الشيخ **محمد البشير الإبراهيمي**[23]، **لويس ماسينيون** مستشرقا حكوميا، وأنه من الذين يجعلون الاستشراق ذريعة لاستهواء الشرقيين المفتونين بالغرب الخاضعة عقولهم وأفكارهم لعقوله وأفكاره[24].

والسبب الذي دفع **بالإبراهيمي** إلى إصدار هذا الحكم القاسي في حق **لويس ماسينيون** هو محاولة هذا الأخير تأسيس لجنة علمية تحت اسم لجنة (فرانس-إسلام)، والهدف منها كما يراه **الإبراهيمي** استعماري بحت، إذ كانت تهدف إلى الاهتمام بأوتاف **أبي**

مدين شعيب في فلسطين، والراجح أنه كان يسعى إلى تنبيه حكومته إلى وجود منفذ يمكن لفرنسا أن تدخل من خلالها إلى فلسطين القريبة من سوريا[25].

ويقول **الإبراهيمي** مخاطبا صاحب فكرة إنشاء هذه اللجنة: "الأقربون أولى بالمعروف، لماذا جاورت الجزائر فلسطين؟ وفي الجزائر إسلام، في الجزائر أوقاف، وفي الجزائر مشردون، وفي الجزائر إسلام مستباح الحمى منتهك الحرمات وفي الجزائر أوقاف دينية منقوصة العقود مهدومة الحدود، وفي الجزائر مشردون شبعوا الجوع..."

وقد سمعت -اللجنة-ورأيت فلماذا لم تقع عينك على الشر القريب ووقعت على الشر البعيد؟ ولماذا لم تغطف على الإسلام هنا وعطفت عليه هناك؟ ولماذا لم تبدئي بتحرير أوقاف الإسلام في الجزائر وبدأت بوقف (**أبي مدين**) في فلسطين أم أن قلب المستشرقين كالإبرة الممغطسة لا تتجه إلا إلى اتجاه واحد وهو الشرق؟ لا ندري أين كان هذا المستشرق -يقصد **ماسينيون**- يوم شاركت دولته فلسطين وإخراج الإسلام منها بموافقتها على التقسيم..."[26].

إن الحركة الاستعمارية الفرنسية وظفت المستشرقين لتحقيق مشاريعها القذرة. فالاستشراق في حقيقته يعد جزءا أساسيا في قضية الصراع بين الشرق والغرب.

ويمكننا أن نقول أن الحركة الإستشراقية في الجزائر تحولت إلى مؤسسة استعمارية تريد ترسيخ فكرة الأورو مركزية في أوساط شريحة فاعلة من المثقفين والمفكرين العرب. وهو ما ذهب إليه أحد المفكرين بشأن الجزائر: "شعب بأكمله يدمج بطريقة متغطرسة في أناس يريدون أسلمته وتعريبه، دون أن يأخذوا بعين الاعتبار ماضيه الثقافي ولا سنوات استقلاله الثلاثين"[27].

الإحالات

(1) محمد فريد بك، المحامي، تاريخ الدولة العثمانية، ط2 (تحقيق و ترجمة إحسان حقّي)، بيروت: دار النفائس 1983، ص ص 223-229.

(2) بول بالطا، كلودين ريللو: سياسة فرنسا في البلاد العربية، ص ص 75-76.

(3) أبو القاسم، سعد الله، المستشرقون الفرنسيون و تعليم اللغة العربية للأوروبيين في الجزائر (1830-1914)، جريدة الشعب، عدد 15، جوان 1991.

(4) إبراهيم لونيسي، "الفكرة الإندماجية في الجزائر 1830-1945 بين الطرح الفرنسي و الموقف الجزائري"، مجلة لرؤية، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، ص ص 134-138.

(5) وافق الملك الفرنسي لويس فليب (1830-1848) محل تشكيل اللجنة الإفريقية في 7 جويلية 1833 بطلب من وزير الحربية الماريشال سولت Soult. و نصب على رأسها الجنرال بوني .Bonnet

(6) أبو القاسم، سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، ط2،الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع1981،ص38.

(7) المصدر نفسه، ص 15.

(8) حول أعمال اللجنة الإفريقية، أنظر:

أبو القاسم، سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع 1982، ص ص 97-130.

(9) شرع دي سلان في ترجمة الأجزاء الخاصة ببلدان المغرب العربي و هذا منذ 1847.

(10) أول مكتب لها كان يتكون من بير بروجر (رئيسا) و عضوية دي سلان، و دونوفو (كلاهما عسكري)، و بريزيني كاتب عام و أستاذ للغة العربية.

(11) عبد الجليل، التميمي، "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول ستة 1519 م"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 6، تونس، جويلية، 1976، ص ص 116-120.

(12)

Revue Africa -104.

(13)

(14) للمزيد من التفاصيل راجع: المجلة الإفريقية لسنة1869، عدد 13، ص 321.

(15) هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا (ترجمة: أبو العيد دودو، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1976، ج1، ص ص 28-29.

(16) قامت السلطات الفرنسية سنة 1795 بتأسيس مدرسة اللغات الشرقية بباريس، و اهتمت بتعليم اللغة العربية باعتبارها لغة الشرق وازدادت أهميتها بعد حملة نابوليون بونابرت على مصر سنة 1798.

(17) -1889, Alger

1889, PP. 325-326

(18)

publique, suivi des catalogues et des manuscrits arabes les plus

Ha

(19) أبو القاسم، سعد الله، المستشرقون... المرجع السابق.

(20) ساهم الأب فوكو مساهمة فعالة في المحاولات الفرنسية في إخماد الثورات الشعبية، في الجزائر كثورة بوعمامة (1881-1904). كما قام بالعديد من الرحلات الاستكشافية في منطقة المغرب العربي، كرحلته إلى المغرب الأقصى (1883-1884)، وإلى تونس (1885-1886)، وإلى سوريا (1890-1896)، ومكث بالصحراء الجزائرية لنشر المسيحية إلى أن قتل في سنة 1916 على يد الطوارق. أنظر: بوعمران، الشيخ، "المجامعات الثقافية في الجزائر المستعمرة من (1830-1880)" مجلة الأصالة، العدد6، الجزائر، 1972، ص ص 50-70.

(21) أسست هذه الفرقة بمقتضى مرسوم ملكي صادر في 7 ديسمبر 1841، وتم تشكيل هذه الفرقة في ثلاثة عمالات وهي: الجزائر، وهران، قسنطينة.

(22) إبراهيم، لونيسي، المرجع السابق، ص 138.

(23) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية علماء المسلمين الجزائريين خلال الفترة الممتدة مابين 1940-1956.

(24) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ط2، الجزائر: الشركة الجزائرية للنشر و التوزيع 1971، ج2، ص ص 391-392.

(25) المصدر نفسه، ص 393.

(26) الإبراهيمي، المرجع السابق، ص ص 396-397.

(27) إدوارد سعيد، الاستشراق(المعرفة- السلطة- الإنشاء)، (ترجمة: كمال أبوديب) ط2، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1984، ص 84.